نحن وأوربا (١)

أيها السادة الإخوان ،

التاريخ كما لا يخفى عليكم [illegible] فكراً جديداً وتاريخ كل أمة مرآة أعمالها تنعكس عليها صورتها . فلا يشق على أحدكم إذا سمعوا في هذه الجلسة كلاماً في تاريخنا السياسي الأخير لم يعهدوه من قبل أو لم ينطبق مع رغائبهم فالأفضل لكل أمة تريد النهوض أن تعرف ماضيها حق معرفته وتقف على مصادره وموارده وأعداؤها لها من أن تحدث بالخيالات وتتعهد بالأباطيل فصديقك من صدقك لا من صدقك . وفي الماضي لمن بقي اعتبار .

موضوعنا الليلة علاقة أوربا بالمملكة العثمانية وعلاقتنا بأوربا نفيض فيه بقدر ما تساعد الحال فنجلي لكم الحوادث والكوارث التي جرت في هذا الشرق العثماني وخصوصاً في بلاد البلقان التي قامت حكوماتها الصغرى منذ أسبوعين تجاذبنا حبل السلطة في مقدونية بل في بلاد الروم ايلي أي أملاك الدولة العلية في قارة أوربا

قد يعد من يلقي أدنى نظر في تاريخ العرب المتأخر من الأغلاط الفنية التي ارتكبها بنو أمية أن تقدموا بأحد قوادهم إلى شبه جزيرة إسبانيا فيفتحون جزءاً مهماً منها سموه الأندلس لم يهزم العرب سكان البلاد الأصليين إلى الجبال ولم يفكر من جاء بعد الفاتحين في طريقة الخلاص من عاقبة أمرهم كأن يدخلوهم في الإسلام أو يقتلوهم بحد الحسام أو يجلوهم عن أرضهم بسلام .

وقد أدرك سيد بني أمية أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه محنة دول المسلمين في أرض يحيط بها أصحابها الأول من أطرافها فأمر أحد عماله أن يرسم له بجلاء بلاد الأندلس يريد إجلاء العرب عنها لأن مقامهم بها غير طبيعي . وبعد وفاة هذا الخليفة ترك ذاك الأمر وشأنه وتأصل الإسلام في ربوع الأندلس وازهرت به مدنية العرب هناك فقامت الأندلس بنحو النصف من هذه المدنية الباهرة والباقي تم في بغداد وغيرها من عواصم الإسلام الكبرى ولم يجل المسلمون عن غرناطة آخر عاصمة للعرب في بلاد الأندلس إلا سنة ٨٩٧ للهجرة أي أن نظرية عمر بن عبد العزيز صحت بعد ثمانية قرون وكأنه أدرك بسديد نظره رحمه الله أن الأخلاف لا يسيرون

---

(١) محاضرة لنا في نادي الحرية والائتلاف بدمشق مساء الخميس في ٢١ ذي القعدة سنة ١٣٣٠

على سنة الاسلاف في الحساب للعواقب وانهم ربما خسروا بما في الاندلس من خيرات عن قطع شأفة العدو وكذلك كان .

فتح الاندلس وان اورث العرب ذلا في الآخر فقد اورثهم عزاً واي عز في الاول واستفادت اوربا كثيرا من حضارة الاسلام باحتكاكها بالاندلسيين العرب ووقوفها على امر كثير من علومهم وآدابهم وصناعاتهم وزراعتهم ومصانعهم. الاندلس كانت اول فتح للمسلمين في قارة اوربا انتهت باجلائهم عنها كما ان فتح العباسيين جزيرة صقلية سنة ٢١٢ كان من الاغلاط في الفتح لم تدم في يد المسلمين سوى نحو قرنين ونصف فاستولى عليها الملك روجار سنة ٤٨٥ هـ بعد ان انقطع امداد المسلمين عنها لاشتغال كل جهة بما يخصها من الفتن .

هذان الغلطان لبني أمية وبني العباس في فتح بلاد قصية عنهم انتهيا باخراجهما منها بعد قرون وبنو عثمان ارتكبوا مثل هذا الغلط في الفتح بان توسعوا في مد سلطانهم في شرقي اوربا بعد فتح القسطنطينية فتركوا لاهل البلاد المفتوحة حريتهم المذهبية ولغاتهم القومية فظلوا في حرب دائمة معهم لا تكاد تنطفئ او تخبو حتى يعود فيوقد الضد أوارها . واوربا [illegible] اخراجنا من قارتها منذ الزمان لاعتقادها بان شعباً آسيوياً لا يليق به ان يأوي الى غير كنفها اذ القاعدة عندهم ان اوربا للاوربيين كما ان اميركا للاميركيين ولكنا نشهد الآن وبالامس ان آسيا ليست للآسيويين ولا افريقية للافريقيين

ان ما يسميه الافرنج بالمسألة الشرقية يرجع في الحقيقة الى امتلاك العرب ارض الاندلس وابتداء افكار الاوربيين انما يرد مبدؤه الى اليوم الذي تقدم فيه جيش المسلمين الى بواتيه من ارض فرنسا نحو . فقاتل شارل مارتل جيش المسلمين في اواخر الثلث الاول من القرن الثامن للميلاد . واكثر من شهدوا الغارة من الاوربيين في حروب الصليبيين اهل فرنسة والمانيا وانكلترا وايطاليا والنمسا في الاغلب وكانت هذه الامم ارتقت الى مستوى الحضارة بالقوة ومخالطتها وتجربة القتال والاساطيل اعظم تجربة عرفتها الدول الاوربية في القرون الوسطى كما كانت اقوى تجربة تجارية في تلك الازمان الجمهوريات الطوسكانيين وغيرهم من اهل ايطاليا اليوم .

ولقد عرف ادوارد دريول المسألة الشرقية بما ترجمته : « منذ الاسكندر الكبير

البلاد الواقعة بين البحر المتوسط والبحر الاسود والصحراء من الغرب ونهر السند « الاندوس » من الشرق اي الطريق من اوربا الى الهند وجاء بعده الرومان فلم يصلوا الى نهر دجلة الا نادرا وكان للفرس ايضا بعض العظمة والمجد · وفي القرن السابع والثامن امتدت المملكة العربية ايضا من البحر المتوسط الى نهر السند ووصلت تخومها من آسيا الى المملكة المقدونية ما عدا امتدادها طاغيا في الجنوب · ومن القرن الثاني عشر الى القرن الخامس عشر كانت غارات المغيرين الذين غزوا اوربا واضطربت آسيا الغربية تلك المنطقة التي هي اوربية وآسيوية معا بخطر التتار على الشعوب واستولت مملكة جنكيز خان وتيمورلنك على جميع البلاد من آسيا الصغرى الى نهر الكنج · وظلت القسطنطينية زمنا آخر سياجا لاوربا في وجه الفاتحين المداهمين من الشرق الاقصى او من نجاد آسيا الوسطى · ودك آخر تيار من تيارات الهاجمين الآسيويين سنة ١٤٥٣ اسوار مدينة القسطنطينية معقل النصرانية من الاسلام وامتدت المملكة العثمانية بعد اربعة قرون على اوربا الشرقية وآسيا الغربية من الخليج الفارسي الى نهر الطونة (الدانوب) الى البحر الادرياتيكي وتدخل سلاطين القسطنطينية في القرن السادس عشر في مسائل اوربا وكان قد حالف ملك فرنسا وحصر على نهر الطونة الاوسط القوة الالمانية وقد بلغت هذه السطوة في عهد سليمان الكبير (١٥٢٠ — ١٥٦٦) ذروة المجد والعظمة ·

« ولكن تغلب العثمانيين لم يغرس في البلاد المفتتحة ولا سيما في اوربا جذورا عميقة دخلوا في الامم المغلوبة بدون ان يحاولوا الامتزاج بها وربما كان من المتعذر مزج العثمانيين وهم من عنصر تتري مع اليونان او الصقالبة « السلافيين » وهم من عنصر آري او اخلاط الشعوب المسيحيين · واكتفى العثمانيون بالقاء الرعب من سطوتهم في نفوس الخلق بعد تملك امرهم وباطفاء كل ثورة بالشدة القاسية · واستمر ذلك الى زمن ضعفت فيه تلك القوة ايام اصبح السلاطين يؤثرون العيش بين جواريهم على اقتحام الحروب وغدا « الينيجرية » « الانكشارية » وهم متزوجون يحملون امر الحرب في ايديهم يشتدون فيه اشتداد قسوة وجبروت ومنذ ذلك العهد اي منذ القرن السادس عشر ضعفت المملكة العثمانية وتراجعت حدودها مضغوطة على نفسها ودخلت مصر بلا وحدات ما بينها كثمرة تنفض اذا عفنت

« فدول المسلمين في اوربا وفي آسيا على ضفاف خليج القسطنطينية « البوسفور »

وتحاق قطعة من البودستان . فقد تخلفت عنه المسألة الشرقية وما تاريخها في الحقيقة سوى تاريخ قرصنة الأمم المجاورة باقتطاع بلاد من الشعوب الاسلامية . ثم ان هذه المسألة صفات دينية وذلك لأن تغلب محمد الثاني وسليمان القانوني على اراض كانت من صميم الاراضي المسيحية كان عبارة عن تغلب راية الهلال على الصليب فان محمداً الثاني قد نزع من جدران كنيسة ايا صوفيا الصور النصرانية وترك السلطان سليمان علم النبي الاخضر على اسوار بلغراد ، وحمله حتى وصل به الى اسوار فينا وطرد من رودس فرسان القديس يوحنا الاورشليمي وهم بقايا الصليبيين . ولما [illegible] في عهد من تغلب الروس على العثمانيين والثورات المسيحية في البلقان لم تكن الا انتصار الصليب من الهلال ، وان الشعوب المسيحية في كل مكان سواء كان في تركستان او جنوبي القفقاس او في بلاد الطونة وفي الارخبيل وسورية ومصر حتى الهند تقوم على الاسلام . وهذه حرب صليبية حالية تعد حروب الصليبيين في القرون الوسطى بالنسبة اليها لعب اطفال

ولما كثر امتلاك هذه الاصقاع ذات التاريخ القديم والمآل الخطير وكان للامم الاوربية في آسيا فيما وراء نهر السند وبحر آرال مصالح حيوية وكان يأتي السلطان القسطنطينية وآسيا الشرقية لم يكن سد القارة القديمة الصحيح اوربا البحر والبر آخذ منها الى تطور المسألة الشرقية وتكونها تكوناً عملياً من النزاع وبقاء الاشد وما فيها من حدة الشباب وقوة اليقين المشرف على الشرق من شماله من نهر الطونة الى جبال البامير ، ولفرنسا في عامة ضفاف البحر المتوسط الشرقية مصالح مادية ومعنوية قديمة العادة لا يتيسر لها ان تتخلى عنها دون ان تفقد تلك التي اعتادوا منذ الحروب الصليبية ان يعتمدوا عليها . ومملكة النمسا والمجر التي هي من بلاد الطونة لا تريد ان تتساهل في حقوق على بحر الارخبيل ، والمانيا الروسية تحاذر ان تعود اليها فتطمح الى امتلاك الارض والانبساط الى الجنوب ، وانكلترا التي لا تود ان تقطع الطريق الموصل من البحر المتوسط الى الهند من قبرص ومصر وافغانستان تحاول ان تحصر الروس فيما وراء البحر الاسود وبحر الخزر حصراً وهي ترى تلك الكتلة من العالم الاسلامي تضطرب لا تزال ابداً في ترق واتساع .

. . وهكذا يتراءى جميع ابناء الاسلام لانبيائهم وبعثائهم وحرمانهم والكثيرين المتكلين وعقائدهم ونوابهم في بلاد الشام طائفين حول شعوب مصر والسامين [illegible] البربر والهنديين في آسيا الصغرى يتوالون الى ضرب هذه الشعوب الغربية

التي اتت الى غير مرة فاحتلت البلاد الواقعة بين نهر السند والبحر المتوسط حاجزة بين الفرعين العظيمين من الاسرة الهندية الاوربية ثم قضت الاقدار الى ما يظهر ان يحصر احدهما الى الآخر .

« بيد ان تاريخ المسألة الشرقية لهذا قد برز في مظهر اقتصادي فهي احدى صور الجهاد في الحياة الذي قد يقتتل في سبيله شعبان على ما بينهما من لحمة القرابة والدم ولقد فتحت ترعة السويس الطريق التجارية العظمى الى العالم القديم فربطا من ٥٠٠ مليونا من الاوربيين ٢٥٠ مليونا من الهنود و٤٠٠ مليون من الصينيين ومنها تحمل من المحيط الهادي الى المحيط الاتلانتيكي ، بحر الظلمات ، مارا بالعالم القديم جميع الحاصلات التي يعيش بها كل يوم . ولانكلترا المقام السامي على البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندي وتملك فرنسا الشاطئين الشمالي والشاطئ الجنوبي من البحر المتوسط الغربي ولها في الشرق مصالح وتقاليد اعظم منها ولها في الشرق الاقصى مصالح حديثة تريد الاستمتاع منها . ولا ترضى روسيا ان تظل محصورة في سهول بلاد الشمال ليس لها منافذ على بحر حر كالبحر المتوسط والمحيط الهندي والمحيط الباسيفيكي وجميع الامم الاوربية محتاجة للمكان على هذه الطريق التجارية العظمى او الظاهر الذي اعني منها ان الامم يتحتم عليه ان يعمل بان يكون له شأن في الحركة الاقتصادية الشديدة في الازمان المقبلة

« فالشرق الذي بدأ فيه التاريخ عاد بعد احقاب ميدان التاريخ وتاريخه الجديد اذا جرى التطبيق بينه وبين التاريخ الماضي ذو الوان والمشاكل غريبة يحمل في مطاويه من الحالة شرائع ومطامع مانعة من تداخل الحوادث التي تتألف منها السياسة الحديثة وربما كانت حياة الشعوب القديمة تبدو لانظارنا ساوحة اكثر من حوادث اليوم لاننا لا نعرفها حق المعرفة ولم نعش عيش اهلها اه .

هذا ما قاله دريول في كتابه المسألة الشرقية ترجمته بحروفه وفيه على ايجازه حقيقة تاريخية راهنة وان كانت روح التحامل تبدو من مطاويها بحكمه الاوربيون على الشرقيين والعاقل من يأخذ من كل كلام عبرة . ومسألة البلقان من اهم فروع المسألة الشرقية ان لم تكن اهمها . ومادتها التي تحيا بها نزوع الشعوب البلقانية الى الثورة والانتقاض بإثارة احدى الدول الاوربية ذات المصلحة لمن يريد ان يتحرر من الحكم العثماني قال رينه بينون في كتابه اوربا والمملكة العثمانية وعليه اكثر

اعتمادي فيما سبق ان الامم في اوربا الغربية فالعامل اليوم لعرض المشاريع العظيمة [illegible] الا الشرق حيث [illegible] والحدود [illegible] تكون عمومية حيث [illegible] جزيرة البلقان ولا سيما آسيا القارية ففي ميدان جديد للتوسع الاقتصادي والنفوذ السياسي والى تلك الاصقاع توجه الدول العظمى انظارها ومطامعها

ثم ان المملكة البريطانية التي [illegible] في تلك المواقع الحربية الشرقية الى الطرق [illegible] في الارض تلك الطرق التي [illegible] بحري وكل [illegible] والى [illegible] البرتغال والسويس [illegible] الهند [illegible] او الارض [illegible] وذلك [illegible] جميع [illegible] الكبرى [illegible] الاوربية [illegible] حول المسألة الشرقية [illegible] العهود والمواثيق

سياسة [illegible] الى الدولة العلية [illegible] الى مدارس [illegible] احدهما يؤدي الى التدخل في شؤونها والآخر يرمي الى سلامتها . [illegible] من [illegible] او [illegible] من الاشكال ومنه حدث في [illegible] الحروب الصليبية . وقد اخرجت اوربا [illegible] من السياسة [illegible] في [illegible] المسألة [illegible] التضامن [illegible] بين الشعوب [illegible] وكما [illegible] في التاريخ الحديث آثار هذا التضامن [illegible] عليها [illegible] الثورة الفرنسية [illegible] حقوق الانسان [illegible] الاحزاب الحرة او [illegible] في الغرب [illegible] عروش [illegible] الطالبين في تحرير العالم

ومن [illegible] التدخل [illegible] من جميع [illegible] التي لا [illegible] [illegible] والحرية [illegible] الشعوب المضطهدة . يريدون [illegible] المضطهدة [illegible] في شؤونها [illegible] المعدودين في مصاف الدول الاوربية العظمى [illegible] علينا

[illegible] اوربا او [illegible] الخروج عن [illegible] وهو حق [illegible] [illegible] كل كثير وقد [illegible] من [illegible] التي لا [illegible] سنة ١٨٧٧ و١٨٩٤ و١٨٩٥ التي قاموا [illegible] صاحب [illegible] يريدون [illegible]

يريد ان يؤسس مملكة في مملكتنا الا تسليماً له وطلب رضاه !

حسبت المعاهدات الدولة العثمانية مركزها من الحق العام الاوربي ولكن سرعان ما انتقض تلك العهود المسطورة اذا كان من ورائها نفض عنصر من شعوب البلقان يده من طاعة سلطتنا . ولقد تعهدت ثلاث دولات اوربية في حرب القريم سنة ١٨٥٦ بموجب معاهدة باريز ان تدافع بالسلاح عن سلامة المملكة العثمانية ولما استبيح حماها سنة ١٨٧٧ اي في الحرب الروسية لم يتطوع عنها احد ولا تحرك منهم لحقن الدماء السائلة قلب حنون . اما اذا اطلعنا على اعمال العثمانيين في كثير من المواطن فتقول انهم ليس لهم ذنب الا كونهم عثمانيين . وهو كلام المؤرخ العاقل .

ولطالما كانت مسألة حماية غير المسلمين في المملكة العثمانية من الاسباب التي تتذرع بها حكومات الغرب ولا سيما فرنسا التي سبقت غيرها الى هذه الدعوى منذ عهد فرنسيس الاول فاشتمل عليه احد سلاطيننا العظام من الرعاية والعطف ولما ترى حقوق الغاصبين في هذا الشرق تذكر في المعاهدات فقد ذكرت في المادة التاسعة من معاهدة باريز وفي المادة الثالثة والعشرين والحادية والستين من معاهدة برلين ولكن في صورة مرنة كالمطاط تمتد الى اطولها حيث يكون مأرب لاحدى الدول تريده منا وتقبض عنا اذا لم يكن لها ثمت باعث الى التدخل في احوالنا

ولقد كان من سياسة انكلترا منذ استولت على بلاد الهند ان تكون طريقها اليها سالمة من العوائق والمضايق لان في الهند ثروة انكلترا والهند شرط لسلامة استيلائها على البحار وقبضها على قياد الشؤون الاقتصادية فالهند هي المملكة كما عرفها دزرائيلي الوزير الانكليزي الشهير وجرى على ذلك خلفاؤه . وقبل فتح ترعة السويس كان من حكم الاستانة ومضايق قلعة وله مدد الى بحر الارخبيل او كان له سلطان على طرق فلسطين يستطيع منها النزول الى البحر او الى ما بين النهرين والخليج الفارسي — من كانت هذه قوته وبلاده يكون منه خطر على الطرق الارضية او البحرية الى الهند او التجارة الشرقية لان البلاد المحيطة بالسويس ليست تحمي ترعة السويس حماية كافية وكثير من الشعوب منذ عهد كيكاوس (كمبيز) والاسكندر داهموا مصر وفتحوها براً آتين اليها من آسيا فان جيش نابليون سار من مصر الى سورية وجيش ابراهيم باشا هدد الاستانة مرتين فليس القناة والطالة هذه سداً يحول دون اغارة الطامعين وهجمات الفاتحين

ولما كان هم انكلترا منذ وضعت يدها على الهند ان لا يكون في الاستانة حكومة تخاف تهديدها وان تكون ارمينية وسورية وفارس على حالها [illegible] امن اهلها مدت انكلترا يدها الى الباب العالي مرة بعد مرة تريد مؤاخاتها في السياسة ومحالفتها على السراء والضراء . وكانت تريد على ان تتحضر وتقوى كما تحضرت اليابان واوشكت تحضر [illegible] مدنية اليابان في الشرق الاقصى مرة ثانية [illegible] ولكن عدل السلطان عبد الحميد وعوامله مدة حكمه بالسياسة الحميدية سائرين فيها على الهوى لا ثابتين في عهد الدستور تلك المدة الطويلة وقضت على امر الامة وسارت بها في طريق لا يؤدي الا الى [illegible] الجامعة الجرمانية

تريد روسيا ان يكون لها منفذ الى البحر المتوسط لا تخشى الوصول اليه الا ارضها ولذلك كان لها من [illegible] الاكراه حين [illegible] تطمع ان تصل الى سلانيك كذلك بل الحملة الى تصورها الاستانة [illegible] مما يعين التعصب في السياسة الشرقية وبطة الدائرة في حقيقتها طريق الهند لا ترضى بها انكلترا . ولذلك كانت تهتم بالمسألة الشرقية اكثر من جميع الدول والاحكام على قدر المعرفة الواجب ومن يهدد في حياته لا يلام اذا عمد الى اتقاء كل خطر عليها من المصارع وسلامة المملكة العثمانية مما قالت به انكلترا سنة ١٨٣٣ والسلطنة سلاحاً ضد محمد علي ولويز فيليب

قال يحيون : ان انكلترا تقوي الدولة العلية لكي تقوى معاملها [illegible] تدفعها في سبيل الاصلاح واللامركزية للتقضي على المطالب المزعجة التي تفرجها شعوب البلقان . وقد نصح لسلطان ان يرجعها عن التدرج في السلطنة [illegible] في العهد السابق [illegible] الحرة النيابية [illegible] المؤثر كتب خط كلخانة سنة ١٨٣٩ وفي التنظيمات الخيرية سنة ١٨٥٦ وتطبيق اصول الحكومة الحرة الانكليزية قد اتى باحسن النتائج لبلاد الدولة العلية . ان كل ما جرى في اللامركزية [illegible] الثلث الاول في [illegible] التدرج بها في مدارج اللامركزية الادارية كان [illegible] الاعمال [illegible] الاصلاح السياسي والاجتماعي [illegible] الانكليزية والاصلاح العسكري في السلطنة [illegible] ان الدولة العثمانية [illegible] في قبول التجدد الحديث [illegible] سلاماً مما كانت [illegible] الى الآسياوية [illegible] من حيث الحديثة مما كانت

ولقد ما بذلت انكلترا من الجهد ولا سيما في الحرب الروسية العثمانية للدفاع عن مصلحة العثمانيين لانها في الدفاع عنها مصلحة لها تريد سلامتها لسلامة طريق الهند ولان روسيا تريد ان يكون البوغازان [جناق قلعة وخليج الاستانة] حرين لتجارة البحرية ولبسط سلطانها لتحرير الشعوب السلافية ولكن انكلترا غلبت على امرها ونجحت سياسة بطرسبرج وبرلين وفينا وكانت متفقة يداً واحدة على تحرير شعوب البلقان الشمالية واحتلال النمسا البوسنة والهرسك واقتطاع روسيا بعض املاك كما مثل باطوم والقرص واردهان من ارمينية واحتلت انكلترا جزيرة قبرص لتكون مشرفة على طريق ارمينية وآسيا الصغرى وسورية لئلا تداهم جيوش روسيا ذات يوم الهند من طريق الخليج الفارسي او من الاسكندرونة او من سورية فخرجت انكلترا ظافرة بحسن سياستها فنالت روسيا مناها ونالت هي من روسيا وطرها وقد جاء بفعل العقل والتوفيق السياسي .

ولقد تجلى في مؤتمر برلين وكان البرنس بسمرك رأسه ورئيسه سلطان الدهاء في السياسة فتلطف الوزير الالماني في مراعاة حقوق النمسا وروسيا وحكومات البلقان كل التلطف فهو يدفع النمسا الى التقدم نحو سلانيك بحدود الامة الجرمانية لان تزايد السكان في المانيا سيضطرها ذات يوم لان يكون لها منفذ خاص مثل سلانيك على البحر المتوسط ان لم يكن في يدها مباشرة فلا اقل من ان يكون في يد النمسا والحق في روسيا طريق الاستانة عن سكة رومانيا واصبحت رومانيا صديقة للالمان وعدوة الروس لان هؤلاء اضطروها الى اخلاء اقليم بسرابيا لقاء دبروجه وكان من نتائج مؤتمر برلين ان اخفقت آمال الروس من البلقان بعد حربها معنا ونالت حقوقاً ضعيفة من مؤتمر برلين نشأ التحالف الثلاثي بين المانيا والنمسا وايطاليا والوفاق بين روسيا وفرنسا وكان من دهاء انكلترا ان اشركت الدنيا في الدفاع عن مصالح الشرق من اعتداء روسيا فتمكنت في مؤتمر برلين بابعاد القوة المسكوبية عن ترعة السويس وطرق الهند وان قربت منها المانيا . والحقيقة ان المانيا قد ربحت في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ بفضل بسمرك كما ربحت ايطاليا بفضل كافور في مؤتمر باريس سنة ١٨٥٥

سلكت كل من الحكومات الصغرى الاربع التي تكونت في معاهدة برلين في سياستها مسلكاً يوافق مصالحها فاقتربت رومانيا من المانيا لتنجو من روسيا والطريق

التي توصلها الى الاستانة واقترب الجبل الاسود من روسيا لئلا تكون النمسا وصية عليه بجوار وارادت الصرب ان تحذو هذا الحذو ولكن علائقها الاقتصادية بالنمسا دعتها الى ان تمسك بيدها الاولى النمسا وبالاخرى روسيا

اما بلغاريا فان الحرب التي شهرت من اجلها قد احيت في النفوس فكرة عودة بلغاريا العظمى الى العالم فتكون لها البلاد حتى بحر الارخبيل والى حدود البانيا وابواب سلانيك ولكن معاهدة برلين قضت بان تكون بلغاريا الاصلية ولاية مستقلة وتكون الروم ايلي الشرقي للعثمانيين هي وسائر البلاد المقدونية الا ان الروم ايلي الشرقي عاد فانضم الى تلك الولاية المستقلة سنة ١٨٨٥ وعين اميراً عليهما البرنس باتنبرج ابن اخت القيصر وهذا الضم مغاير لبنود معاهدة برلين ولولا المحالفة الثلاثية لنقضت تلك المعاهدة عروة عروة مع معاهدتي ركيورث وسان ستفانو

ولما اتفقت الدول في المحافظة على حالة البلقان قامت اليونان والصرب تريدان ان تنالا تعويضاً يوازي ما نالته بلغاريا من الروم ايلي الشرقي وبلغ الحنق من امبراطور روسيا اسكندر الثالث الاحمل البرنس باتنبرج على التنازل عن الملك فانتخب مجلس الامة البلغاري سنة ١٨٨٧ بنفوذ النمسا والمانيا البرنس فردينان دي ساكس كوبرج غوتا من ضباط الجيش النمساوي والمجري وهو الامير الحالي الذي [illegible] ملكاً في البلغاريين منذ اربع سنين

وفي سنة ١٨٩٥ — ١٨٩٦ حدثت الوقائع الارمنية المشؤومة في الاستانة وارمينية مبينة في اعلام الحقيقة وقد نجحت فيها السياسة الروسية اكثر من الانكليزية لان قسماً مهماً من الارمن هم في ارض روسيا وهم لا يؤلفون اكثرية في ولاية من ولايات ارمينية وكردستان .

ولما رأت روسيا نفسها محصورة في تخوم البلقان ارادت ان يكون لها منفذ ولو الى الشرق الاقصى وكانت سكتها الحديدية الى سيبيريا قد اشرفت على النجاز فقلقت من ذلك انكلترا وانتهزت فرنسا هذه الفرصة ففتحت جزيرة مدغسكر وضمت مستعمراتها الافريقية بعضها الى الآخر وحلت المسائل المختلف عليها بينها وبين انكلترا في افريقية وفي آسيا ثم نشأت مسألة الكونغو وسيام وشاطئ غربي افريقية وكان لانكلترا يد طولى في تأخير مسألة كريت ونزعها منا وكريت اخت ارمينية في الصورة والشكل وان كانت غاية كل منهما متباينة وللمانيا يد كبرى في جعل

كريت تحت حماية السلطان وامارة البرنس جورج اليوناني آثرت ذلك على ان تراها غنيمة سائغة لانكلترا كما كانت مصر وقبرص من قبل طريق الهند وبذلك ازداد نفوذ المانيا في الاستانة وصار لسياستها الموقع الاول الذي بدا في مؤتمر برلين فكان منه عموم النفع لشؤونها التجارية والاقتصادية . وفي سنة ١٨٩٧ عقدت روسيا مع النمسا والمجر محالفة على حفظ السلام في البلقان وكبح جماح المتناغين بجنسيتهم من عناصرها وفي سنة ١٩٠٣ اتفقت تانك الدولتان على بروغرام مورتزج لاصلاح مقدونية وبذلك تعادل نفوذ الالمان في الاستانة

مسألة المضايق او المضيقين البوسفور والدردنيل مرتبطة بالمسألة الشرقية اشد ارتباط ولطالما تألمت روسيا من اعتزالها وراء البحر الاسود تملك بعض شواطئه ولكنها لا تستطيع ان تنفذ منه فشبهوا مقامها هناك بالمسجون في قصر لا يستطيع الخروج منه ولولا انكلترا لقبض الروس على قياد المضيقين ومن قبض عليهما قبض على مقاليد البحرين الاسود والابيض ولما سار ابراهيم بن محمد علي باشا المصري بجيوشه سنة ١٨٣٣ من سورية الى آسيا الصغرى وكاد يهدد الاستانة لم تر الدولة الا ان تستعين لدفع عاديته بالاسطول الروسي فبعثت دولة القياصرة اسطولا الى قرن الذهب في خمسين الف جندي حتى اذا امنت السلطنة شر ذلك المهاجم واراد الاسطول ان يعود من حيث اتى بعد ان كان مرساه في المضيقين لاول مرة وبوارجه الحربية ترفع اعلامها اراد ان يشاغل ذلك فعقد الباب العالي مع حكومة القيصر معاهدة هنكار اسكله سي وبموجبها تحمي روسيا المضيقين حماية حقيقية بحد السلاح فعظمت الشكوى من هذا العهد الذي يضر مصلحتها وما زالت تتعمل في اساليب السياسة حتى اضطرت الدول ان تعقد مؤتمرا في لندرا سنة ١٨٤١ وكتبت فيه معاهدة جاء في مادتها الرابعة ان المضيقين لا يفتحان لدولة من الدول تسير فيهما بوارجها فسقطت بذلك معاهدة هنكار اسكله سي واصبح من حق سلطان العثمانيين ان يغلق المضيقين في وجوه الدول وليس من حقه ان يفتحهما فتقيد بذلك تقييداً لا ينطبق مع ما تدعيه حكومات اوربا من مراعاتها لحقوق السلطنة وسلامة استقلالها .

ثم ان انكلترا اضطرت روسيا بموجب هذه المعاهدة ان لا يكون لها سوى عدد معين من السفن في البحر الاسود ولا تنشئ دوراً للصناعة (ترسانات) على شواطئه وبذلك سد البحر الاسود في وجه روسيا في سبيل قوة حربية كما كان على عهد كاترينا

الثانية وبطرس الاكبر ولا نخبة روسية كما قضت معاهدة خنكار اسكله سي وهذا الحق لا يتناول بالسنة العينية على دول اوربا الخمس الكبرى ولا سيما كبيرتها انكلترا فقد دخل الاسطول الانكليزي والفرنساوي ليضربا مع الجيش العثماني قلعة سواستبول الروسية وهكذا اصبح ما يحرم على روسيا لا يحظر على غيرها فكان معاهدة لندرا يقصد بها اتقاء عادية الروس عن البحر المتوسط فقط وقد أيد السد القاصي بالحجر على روسيا وراء المضيقين سنة ١٨٤١ في معاهدات ١٨٥٦ و١٨٧١ و١٨٧٨

* * * *

في الامثال العربية لا تطعم العبد الكراع فيطمع في الذراع ويظهر انها تنطبق على حكومات البلقان الاربع المجاورة للاملاك العثمانية فانها بعد ان استقلت الاستقلال التام وصار لها [illegible] حكمها ملوك ومجالس نيابية حداها الغرور ان توسع في بلادها ولا سبيل الى ذلك الا باقتطاع شيء من الاراضي العثمانية وكيف السبيل اذا كان علم الامن مرفرفا فوق ربوعها ؟

ولذا عمدت اليونان والصرب والبلغار الى تأليف عصابات من ابنائها وفيهم كثير من خاصتهم المتعلمين في المدارس العليا تلبي الوحي وترتكب انواع التعذيب والقتل في ربوع مقدونية التي تريد كل منها الاستئثار بها او ببعضها ومقدونية هي عبارة في عرفهم عن ولايات سلانيك وموناستر وقوصوه: والحقيقة ان مقدونية هي مهد الاسكندر حيث ترى عاديات بللا وبيدنا والمبو فبقي المكان معطلا من تحكيم عصابات الغول والارهاب من الاهالي التي [illegible] سنة يدفع اكثرهم كما تدفع العاصفة هشيم هذه البلاد وكانت من قبل من انعم بلاد الله عمرانا وعادت [illegible] زراعتها [illegible] وخصباً . فلما [illegible] السوداء في تلك السهول المنبسطة [illegible] سوى [illegible] لا تكاد [illegible] السكان وكثرت في حقولها النباتات الطبيعية من العوسج والاعشاب الضارة وتجردت الآكام من [illegible] المياه [illegible] من [illegible] والامطار تنهال على المنحدرات لا يبقى شيء في سطحها تحمل التربة الصالحة للزرع [illegible] منها بطائح ويجتمع كثير في هذه التربة الركية تحملها السيول الى [illegible] بحيث لا يأتي عليه مئة سنة الا ويظل كالحوض المطبق وانحصرت القرى في اعماق الاودية

او رؤوس الآكام المحدرة ولم يبق في تلك الارض مزرعة ولا بيت منفرد واخذت الاكواخ ينضم بعضها الى الآخر خوفاً وهلعاً

ثم ان هاته العناصر التي ادعت المدنية هي التي تهرق دماء الابرياء وتدعي انها من رسل المدنية والسلام والمذنب في ذلك على اوربا التي كانت بعض حكوماتها تسر حسواً في ارتغاء وتدفع البلقانيين الى ارتكاب المنكرات من الايقاع بالانفس والعبث بالاموال وبالعروض وقد اشترطت اوربا في مؤتمر الاستانة ومؤتمر سان ستفانو ان تجري الاصلاحات في الولايات العثمانية من قارة اوربا ولكن اي اصلاح تقوم به دولة والعدو المجاور يرسل عليها كل يوم عصابات تستبيح السفك والفتك وان المرء يعجز اذا اراد احصاء مابذلته هذه الامة من دمائها منذ قرن فقط في سبيل بقاء الروم ايلي في ايديها

لما استقلت حكومات البلقان الشمالية في مؤتمر برلين لم تعط ولاية الروم ايلي الشرقية لبلغاريا لان البلغار بين سكانها اكثرية ولكن بلغاريا خرقت هذا البند من المعاهدة وضمت اليها تلك الولاية وهكذا الآن تحدثها نفسها ان تستولي على مقدونية او جزء مهم منها مع ان العنصر البلغاري هو بعض سكان هذا الاقليم اذ فيه صربيون ويونان وفلاخيون مع الاتراك والارناؤد فمقدونية هي مزيج من عدة عناصر وليس في حقوق البشر قانون يقضي بانفصالها عنا وذلك لان الفاتحين لتلك البلاد منذ عهد السلاجقين قد تركوا فيها آثاراً وهذه البلاد التي نشأ فيها الاسكندر فاتح العالم قد اقتبست اموراً من اليونان ومن الرومان ومن الصقالبة ومن البلغار ومن العثمانيين لان كل امة حكمتها استولت على سهولها اما الجبال فكانت معاقل طبيعية لمن ارادوا الاحتفاظ من السكان بقومياتهم ولغاتهم ومن هؤلاء تألفت كتلة قامت تنادي بطلب الاستقلال وكل امة من امم الطونة الاربع اي بلغاريا والصرب ورومانيا واليونان تدعي ان سكان مقدونية جزء من عنصرها مع ان لغاتهم متباينة وكذلك اديانهم وكل منها بذلت في سبيل تكثير الناطقين بلغتها اموالاً طائلة وعلمت تاريخها وعوائدها واساميها حتى انك تجد في مناستر تاجراً ولد بالبانيا ثم تبلغر اي صار بلغارياً ثم يونانياً اما الآن فهو روماني وهذا من المضحك ما سمع في التبدل . ومن خان لغة ابيه وامه كان خائناً بالطبع اللغة التي يتعلمها ايضاً ويدعي الانتساب لاهلها زوراً

يقول كتاب الافرنج ان الدولة العلية لم تقم بالاصلاحات التي تقررت في الولايات المقدونية ولو وفت بالوعد لما فتح سبيل لتلك الدويلات ان تطالب بشيء البلاد المجاورة لها ولما قامت يونان تقول ان لغتها ومدنيتها هي الحاكمة المتحكمة في مقدونية منذ عرف التاريخ ولا ادعت الصرب ولا بلغاريا ولا رومانيا مثل هذه الدعوى ولكن الموظفين العثمانيين اذا تركوا وشأنهم يهمهم اصلاح حالة البلاد ونحن نقول ما قاله صديقنا علي فكري بك لو قمنا من انفسنا بالاصلاحات في الروم ايلي وطبقنا القانون الذي كنا سنضعه لنفذ في ارجائها لما احتجنا الى من يحثنا الى ما يجب علينا القيام به من تلقاء انفسنا ولكن امراض الشرق كثيرة ومرض الاهمال احد تلك الادواء القتالة .

ولقد انتهت الحال سنة ١٩٠٢ في مقدونية عقيب وقوع حوادث مزعجة ان بعث الباب العالي مفتشاً الى الولايات الثلاث وتألفت لجنة مختلطة من خمس دول لاصلاح مالية هذه الولايات وجيء بضباط ايطاليين وفرنسويين والمان وروس وانكليز لاصلاح سلك الجندرمة الذي طالما جلب الويلات علينا في البلاد العثمانية فدرست اللجنة مالية الولايات الثلاث فاذا موازنتها سنة ١٩٠٦ تبلغ ٢٦٨٠٠٥٠ ليرة عثمانية يصرف منها ١٤٤٨٠٨٠ على الجندية وبقيتها ٣٥٤ الف ليرة من ديون الدولة فلم تقدر اللجنة ان تعدل شيئاً من النفقات الحربية ونظرت في ميزانية الملكية وهي ٨٣٣ الفاً فعسر على الدول ان يطالبن حكومتنا بتطبيق الاصلاحات العمرانية وكان من ذلك تساهل مفتشيها في قبولها زيادة ثلاثة في المئة على الرسوم الجمركية ولانكلترا ستون في المئة من مجموع ما يرد على السلطنة العثمانية من الواردات فنالت بريطانيا وغيرها من الدول ذوات الشأن امتيازات وتمديد مهلات ومنحت حقوقاً اخرى علاوة على ما لها في الارض العثمانية .

تمكنت الحكومة العثمانية بعد سنة ١٩٠٤ من كبح جماح العصابات لان كثيراً من رؤسائها ولا سيما البلغارية منها هلكوا بايدي جنودنا . ومما يجب ان يعرف ان سواد البلغاريين في مقدونية اكثر من غيرهم من العناصر غير المسلمة وهم اهل النشاط والحرب . وثلاثة ارباع من هاجر من بلاد مقدونية الى اميركا هم من البلغاريين والمهاجرون فيها لا يقلون عن مئة الف . ولقد اغتنوا كما اغتنى بعض السوريين ومنهم من عاد الى بلاده فابتاع الاراضي بالثمن الباهظ وتخلص بعضهم من سلطة

الاغنياء ارباب المزارع الواسعة وعمروا الدار والعقار . وليست الهجرة من ممالك البلقان الى اميركا وغيرها باقل من هجرة السكان من الروم ايلي حتى لقد هاجر خمسة عشر الف يوناني من جهات وارنة في بلغاريا سنة ١٩٠٦ الى اثينة وغيرها عقيب مناوشات قتل فيها افراد من اليونانيين والبلغاريين وذلك بداعي تعيين اسقف يوناني في وارنه .

اقول عقيب مناوشات وما احرانا ان نقول عداوات فان اليوناني يكره البلغاري والبلغاري يكره الصربي والبلغاري يمقت الروماني والجبلي يتألم من الصربي حتى صورة يستغرب من قرأ تاريخهم امس كيف يتفقون اليوم اتفاقاً مريباً لم تخرج عنه سوى رومانيا المرتبطة مصالحها بمصالحنا واعجب منه ان نرى روسيا عقب مؤتمر برلين بعد ان كانت في البلقان هي الكل والكل رضيت بان تشاركها في نفوذها دولة النمسا والمجر واغرب من كل هذا ان ايطاليا وفرنسا والنمسا والمانيا وروسيا وانكلترا كلها تنادي بسلامة المملكة العثمانية وحفظ الحالة الحاضرة في البلقان مراعاة لمصالحها لان كل واحدة تستفيد من الروم ايلي وهو في ايدي العثمانيين من حيث التجارة والامور العمرانية والمالية اضعاف اضعاف ما تستفيد منه لو كان لا قدر الله في يد غيرنا من حكومات البلقان وذلك لان القوم في اوربا يستفيدون من اهمالنا وعدم عنايتنا بالمصالح المالية بخلاف غيرنا لو كان له سلطان على شبه جزيرة البلقان كلها فانه يقطع على الماليين والمتجربين الاوربيين ارزاقهم ويحاربهم حرباً اقتصادية شعواء .

ثم تعلم الدول الست ان اهل كل عنصر من العناصر البلقانية اقوى على قلة عديدهم في التشيع لابنائهم الناطقين بلغتهم من العثمانيين بمجموعهم لان كثرتهم مثال الصربي مسلماً كان او كاثوليكياً او ارثوذكسياً يهتم لمصلحة بلاده اكثر مما يهتم التركي والعربي ! وكان هذا الخلق خاص بشبه جزيرة البلقان الا قليلاً فقد رأينا الارناؤوط مسلميهم ومسيحييهم يدافعون يداً واحدة عن كل ما فيه سلامة وطنيتهم وامتهم لم تفرق بينهم المذاهب والنحل وكذلك البلغار يعتنون بالجنسية اكثر من تعلقهم بدينهم وهذا الخلق ضعيف جداً في ديارنا وما برح اهل كل نحلة يتشاغبون بحب بعضهم بعضاً ولو كانوا لا تجمع بينهم امة ولا وطن ولا قرابة جنسية .

اقترحت انكلترا لما رأت عجزاً في ميزانية الولايات المقدونية الثلاث لكثرة ما ينفق من اموالها على الحامية فيها ان يقلل عدد الحامية ليتوازى الدخل والخرج

ويستطيع اهل الشأن او ذووه ان يقوموا بالاصلاح المطلوب بمدونية ولكن الدولة العلية تعلم اكثر من كل دولة ان سلامتها في اليوم الي مسودة ناصية جيشها وان عهود الدول ومحالفاتهن تشتمل عليها لا فائدة ضمنت لها معاهدة اوربا سلامة املاكها من التمزق ومع هذا فقدت بعدها ولايات كثيرة ولم يقم من دول اوربا من يقول ان اقتطاع ارض عثمانية مخالف لتلك المعاهدة التي اقرتها الدول او معتمدوها

والا اذا وصفنا اوربا بالظلم في بعض شؤوننا فلا يسعها الا ان تعدنا مظلومين في الاكثر ولا سيما فيما يتعلق بالمسائل الاقتصادية الحيوية من استثمار الخيرات والتجارات والصناعات في السلطنة قال يبوت : لا تزال ميزانية الخاصة (الاشغال العمومية) في السلطنة في حالة التكون او كالجنين لم يتكون والاجانب هم الذين ينشئون الخطوط الحديدية والمرافئ والارصفة والترامواي والفنادق وهم الذين يبيعون المدرعات والسفن والمدافع والبنادق وكل المعدات التي تلزم الجيش وهم يعدلون المناجم وهم يؤسسون شركات الملاحة وقد اعتادوا ان يحملوا الى البلاد العثمانية ادوات المدنية الحديثة على شرط الا يكون فيها ربح لهم وغاية كل حكومة في ان تنال مشاريع اكثر ثمرة من غيرها وبذلك تنحصر منافسة الدول العظمى في الاستانة يراد بها الاعمال الاقتصادية

ولطالما كان من المعتدين السياسيين سماسرة المتجرين والصالحين ولم يلبث اليوم الثاني حملة عليه ان يكتب الى السلطان عبد الحميد مخبراً بعمل عطية كبرى للسفارة الالمانية والمالي يدخل ترجمته في ظل شجرة ذات قديمة . يرى هذا وهو يدهش من تكالب الغربيين على الاعمال وتنافسهم في سبيل الكسب وانسيابهم من بلاده ووضع ايديهم على مصادر ثروتها وحياتها . والسلطان هو الذي يمنح هذه الامتيازات (هذا الكلام قبل الدستور) في القاهرة وهو صاحب الوقت ولا حرية له في رفض ما يعرض عليه لان الدول التي نالت معدات وحدوداً تستعملها حين الفاتحة لسياسة دينية والاستمتاع صنائع في معاملها وهي تراقب المالية وتنظر في مسائل الديون العمومية ولا يعمل شيء الا بقبل رؤوس اموالها الذي تحميهم ولا يخضع رعاياها بموجب قانون الامتيازات الاجنبية للقوانين العثمانية ولا يحكم في مسائلهم غير قناصلهم . وللاجانب مدارس لاولادهم ومدارس داخلية وكليات ورهبان واطباء وادارات بريد وبرق وليس للبلد العثماني ولا لاجنبي الاموال

اي سلطة عليهم فكل واحد منهم كأنه لا يمس فالسلطان يحكم ولكن الاجانب يتمتعون وذلك لانهم ملوك المال اه

يتمتع الاجانب في البلاد العثمانية بدسيهم الخبث ونفوذهم التي لا تقل واعلام دولهم التي تحميهم فبعد ان كان لفرنسا منذ القديم المقام الاول في التجارة نازعتها انكلترا حتى استأثرت باكثر من مجموع نصف الصادرات والواردات ثم جاء الدور لالمانيا بعد مؤتمر برلين فان كانت هذه الدولة قد فتحت ولايتين وهما الالزاس واللورين فتحاً سياسياً فقد فتحت الولايات العثمانية فتحاً اقتصادياً فانشأت البيوت التجارية والمصارف والمدارس ومن اهم الامتيازات التي نالتها سكة حديد بغداد تصل بين الاستانة والخليج الفارسي ولكن انكلترا لم تغفل عن ذلك لانها تحاذر من ان يصل احد الى الهند من غير طريقها وارادتها فسلحت البادية فيما يقال بسلاح انكليزي هندي وبثت عيونها طول الخط الحديدي ولما لم يعد ثم انتبهت لتجاره مع العثمانية حكومة ايطاليا والنمسا وكل الدول تنازعنا بل تتنازع حياتنا الاقتصادية واملاك العثمانية كما قال بعضهم فيها مجال لكل طالب على فقرها بل ان فيها [illegible] الين انفسهم لو يعملون

ولما ايقنت انكلترا بالخطر على مصالحها في الشرق ولا سيما الهند بتهديد الالمان خليج فارس بسكتهم الحديدية الجديدة من الاستانة الى بغداد ارادت تأمين طريقها الى هندها بتطويق بلاد العرب بطوق من حمايتها فاثارت اولا مسألة تحديد التخوم بين مصر وسورية وذلك في المسألة التي عرفت بمسألة العقبة وطابة سنة ١٩٠٦ فاستأثرت مصر التي هي محتلة لها بشبه جزيرة سينا وامنت انكلترا من هذه الجهة وكانت عقدت مع فرنسا عقداً في سنة ١٩٠٤ تكون انكلترا بموجبه حرة في وادي النيل كما تكون فرنسا حرة بعملها في شمالي افريقية ونتج من ذلك قبض فرنسا على قياد حكومة مراكش حتى اصبحت جرائد الفرنسيس تذكر اليوم اخبار المغرب الاقصى في باب المستعمرات كما تذكر تونس والجزائر والسنغال ومدغسكر وسيام والهند الصينية ، وهكذا جعلت السياسة العقبة وطابة اسماً في التاريخ وكانت من قبل نكرة كما جعلت الحملة التي سيرتها فرنسا منذ بضع سنين من اعالي وادي النيل مثل ذلك لقرية فاشودة وانتهت بالوفاق الفرنساوي الانكليزي وكما اشتهر بور ارثور في الشرق الاقصى الذي زحزح اليابان عنه الروسيين عقيب

معركة لم يسمع في التاريخ باعظم منها وكان من ذلك ان عاد الروس ادراجهم من الشرق الاقصى واشتهرت بورارثور

نقول طوقت انكلترا شبه جزيرة العرب بطوق من حمايتها ومن عرف كيف اخذت مضيق باب المندب وعدن وبريم منذ القديم لا ينكر وضع حمايتها على صاحب الكويت لتدعي بعد ان حوض الخليج الفارسي انكليزي محض كما وضعت حمايتها على امير مسقط اي سلاطين عمان وحمت صاحب البحرين وصاحب قطر فطوقت بذلك الجزيرة لتأمن غائلة الالمان والله اعلم ماذا يخبأ المستقبل للعراق والشام واليمن والحجاز ونجد والجزيرة وكل هذا تسأل عنه حكومة الاستبداد الماضية التي ارادت ارضاء المانيا فاغضبت انكلترا فكانت النتيجة خسارتنا على كل حال

وكذلك الشرق ينتفع به الغرب وحكوماته تشتغل بالباطل كما حدث لجارتنا ايران فوقعت بين يدي انكلترا وروسيا هذه ادعت ان منطقتها من الشمال وتلك استأثرت بالجنوب وكان من اختلال الامن في بلادها حجة تذرعت بها السياسة الحديثة كما كان كذلك في العهد الاخير من مراكش مع فرنسا .

ومن اخلاقنا معاشر الشرقيين اننا نذكر الداء عند وقوعه ولو قيل لنا ان نتخذ شيئاً من الاحتياط القليل بادئ بدء هزئنا بالمشير علينا واستسلمنا للاقدار فالاخطار فقد رأينا مثلاً فرنسا نشرت مدارسها في الشرق العثماني والمصري اي انتشار حتى كادت تدعي ان لها حق الحماية على رعايا بعض اصقاعنا بحجة حماية الدين في الشرق وقد حذت حذوها ايطاليا فنشرت على اثرها مدارسها باموال خصصتها لها في ميزانيتها في طرابلس وبرقة . وان ذكرى هذين القطرين ليرمض قلب كل عثماني اليوم . وفعلت مثل ذلك في بعض بلاد الارناؤد وكذلك تفعل المانيا في بلاد الاناضول ووادي الفرات فتنشئ اليوم مدارس المانية تحت رعاية امبراطورها كما انشأت في فلسطين ومثل ذلك فعلت روسيا في ديارنا وكل يوم امتيازات جديدة وحقوق علينا اكيدة .

ومنذ حرب السبعين بين المانيا وفرنسا لم ترَ اوربا دولتين او ثلاثاً التقتا في حرب ما عدا حرب الصرب وبلغاريا سنة ١٨٨٥ ونرى مصالحهم تقضي بينها بالسلام سلام عليهم وحرب على غيرهم . وكل مدة نسمع بعض زعمائهم وملوكهم يجتمعون ويتفاوضون سراً فلا نلبث ان نرى ازمة في احدى بقاع الشرق لا تنحل الا بربح

جماعة المتفاوضين . ثم يشرب بعضهم نخب الآخر كأنما يتحابون ويتآخون ويتصالحون وفي الحقيقة هم يجسون الارض ليكونوا على ثقة مما لهم اذا نشبت بينها حرب حقيقية وهذه سياسة غريبة كل الغرابة في مظاهرها المتناقضة في هذا العهد وما قط كانت الحقائق العميقة مختلفة عن الظواهر التي تمثلها كل هذا الاختلاف قبل اليوم ؛ وعلينا ان لا ننسى انه ربما تحدث مشاكل غير منتظرة في الشرق لان فيه فقط تجد اوربا بلاداً بكراً واسواقاً جديدة لم تزل حتى الآن ادوات الاقتصاد الحديثة فليس يرجى في اوربا الغربية والوسطى الآن حروب فتح وغلبة وليس فيهما امة تستطيع ان تربح من الاخرى ولذلك ظهرت منافساتهن في الاصقاع النائية واذ كانت اوربا مطلقة في صحونها وآسيا الشرقية لا تقبل وصاية دولة عليها بتة والافريقية لم تأت حتى الآن بثروة تذكر لم يبق امام امم اوربا غير التنازع في المملكة العثمانية في مشارف جديدة لصناعاتهم واعمالهم وتجاراتهم ؟ !

هذه حقيقة حالنا مع اوربا وهي اقرب الى ان تكون لهجتها لهجة المتشائم لا لهجة المتفائل ومع هذا فاننا نعرف من تاريخنا وتاريخ غيرنا من الامم لا يزال الرجاء معقوداً في مصالحنا وعقول القائمين الآن بالامر فينا ولا ينقصنا الآن الا ان نجتمع على الخير كلنا ونحمل العلم والعمل والقدوة فليس الخطأ فيما وقع علينا من الحيف هو خطأ الحكومة فقط بل ان المحكومين انفسهم مسؤولون كثيراً عن كل ضعف بدا وكل شر تم يسألون عن تخاذلهم وتخاذلهم وعن فساد اخلاقهم وقلة نظرهم في عواقب امرهم وصبرهم على جهلهم وادعاء المعرفة وتذللهم للفاسد وكزازة ايديهم في المآزق

كلنا نعلم ان حياتنا السياسية مقرونة ببقاء هذه الدولة العلية العثمانية آخر مملكة قوية مستقلة من الممالك الاسلامية وان دولتنا اليوم في بحران شديد فاين الاغنياء لا يبذلون عن سعة لاغاثة الامة على الاقل في كسوة ابنائنا المجاهدين في الروم ايلي بعض ما يصرفونه على شهواتهم ، التي والله اخجل من تسطير تلك الصدرات والجوارب والاعنة الثقيلة التي لا يجد ملوك المال فيما غيرها وقد رأينا واحدهم وزوجته كلاهما من رقاب الفلاح وسرقة الحزبية لا ينفق في هذا السبيل ربع ما انفقه لاستحصال رتبة او اخذ منصب او مكافأة على دسائس فاين هذا وامثاله من ذلك اليهودي الذي تبرع لحكومته بخمسة ملايين فرنك تبتاع بها بارجة حربية !

ان هذا التنافس المشهود على اشده في الحكومات الاوربية والاميركية هو الذي

اعوزنا اليوم فتركنا هدي كتابنا الكريم واردنا تقليد المحدثين فصرنا كالغراب اراد مشية الحجل فنسي مشيته ولم يحسن تقليد من يريد تقليده . اننا اذا تفاهمنا نتبع الاشياء مواضعها واذا تفاهمنا نحيي في تأليف احزابنا وحرب عدونا والامن في مستقبلنا السياسي والاقتصادي والا فكل كلام ضائع وكل سعي في ابحاثنا هباء فتنبهوا رحمنا الله واياكم ان الدهر صاحب من لم ينظر في العواقب والسلام بعدد ما سجل التاريخ لاجدادكم من المآثر وعد لهم من الايام الغر المحجلة وقد قيل :

الناس كالناس والايام واحدة   والدهر كالدهر والدنيا لمن غلبا

مدينة كربلاء

١ً معناها اللغوي

كربلاء بالمد تطلق اسم علم على بلدة من ديار عراق العرب واقعة في البرية بعيدة عن الفرات ، وكانت فيما سلف اسم قطعة من ارض فيها قرية اسمها المزارع وفي اشتقاق لفظة كربلاء آراء عديدة منها : اولاً انها مأخوذة من كربل وهو نبات له نور احمر مشرق يسمى به الحماض . ثانياً انها مشتقة من الكربلة وهي الرخاوة في القدمين وقيل ثالثاً انها من الكربلة بمعنى المشي في الطين يقال جاء يكربل كأنه يمشي في الطين . وقيل رابعاً انها من الكربلة بمعنى الخوض في الماء والخلط . وقيل خامساً انها مأخوذة من الكربلة بمعنى تهذيب الحنطة وتنقيتها من التبن كالغربلة ومنه ما جاء في هذا البيت :

يحملن حمراء رسوباً للثقل   قد غربلت وكربلت من القصل

سادساً قيل انها حديثة الوضع مشتقة من الكرب والبلاء خففت ونحتت وصارت كربلاء . سابعاً قيل انها كلمة كلدانية معناها حرم الله وهذا القول اقرب الى الصحة من غيره لانه كان في تلك الديار معبود وله حرم فسمي باسم الهيكل . ثامناً ذكر صاحب دبستان المذاهب ان المجوس يزعمون ان لفظة كربلاء مشتقة من كلمتين فارسيتين معناهما العمل العلوي . واللفظتان هما « كار بالا » فعربها العرب بكربلاء وهذا رأي ضعيف وضعفه ظاهر . وهم يزعمون انها كانت بيوت نيران ومعابد لهم في الزمن السالف ، والعصر الغابر .